

رؤيتي في القصة

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

الى مارسيل جوهاندو ومرة الى روجيه مارتين دوغار ، والتي تقول :
« الادب ؟ لا تتكلموا عنه ، بل اصنوه ! » . فانا افضل صنع الادب
على الكلام عنه . افضل هذا حتى لو كنت متفرغا للادب ، كل وقتي
مصروف اليه ، ولا انشغال لي بغيره . فكيف وانا امرؤ تستغرقني انواع
شتى من النشاطات والاعمال ، والادب ، على طول ممارستي له ،
لا يزال عندي هواية املا بها ما يتركه لي العمل من وقت ؟! ان هذا
احد اعذاري في الانصراف عن الكلام في الابداع ، الى الابداع ذاته .
الابداع عمل فني ، اما الكلام عنه فهو دراسة أدبية قد تسمو فتكون
انارة للعمل ونقدا واعيا ، وقد تتدنى فتكون سفسطة او جدلا عقيما
يستهلك ، دون طائل ، الجهد والوقت .

هذان سببان احسبهما مقنعين لنفسي ولكم بأنه اجدى أن اتجنب
مثل هذا الحديث الذي اقرع به الآن اسماعكم وان انصرف الى كتابة
قصة قصيرة او فصل من رواية . وعلى الرغم من ذلك تروني أقف
بينكم لاسفست عن كتابة القصة بدلا من انتاجها . هذا ما يقودني الى
العجب من نفسي ، العجب الذي يصل الى حد السخرية . لم أفعل
هذا ؟ لا شك في ان لتصرفي أسبابه الواضحة والخفية . ولعل من
هذه الاسباب حكم الظروف وعسودي البيئة . أتراني وحدي الذي
يستسهل الدروب ويتبع المفريات بهينات الامور ، فيهرب من الانتاج
الى السفسطة ؟ أم انه زي العصر ، في بلادنا ومختلف اوساطنا ؟
السنا أينما التفتنا نجد الجدل قائما في مكان يجب أن يقوم فيه
العمل ؟ أكاد كاديب أجد العذر لي وللكتاب أمثالي ، اذا هربنا من
الانتاج الفني الى الكلام عن الانتاج الفني . نحن ان فعلنا هذا فان كل
جريتنا اننا استبدلنا كلاما بكلام . في حين نجد غيرنا حولنا يستبدل
بالكلام الاجوف وشقشقة اللسان الفعل الصحيح والعمل المثمر اللذين
تتوقف عليهما في بعض الاحيان حياة الافراد ومصير الجموع .

نعم ، قد يكون الزبي الشائع هو الذي يسوق الكتاب الى الحديث
عن انتاجهم بدلا من الانتاج ذاته . وقد تكون متابعة هذا الزبي هي التي
تفسر مظهرا آخر من المظاهر الطاغية على العمل الادبي في هذه الايام
في ألوانه المختلفة ، في القصة والشعر وفي المسرح . المظهر السذي
اعنيه هو اطلاق الاسماء على غير مسمياتها ، وحيانا على عكس
المسميات ، وقول الكلمات لتصل عن المعاني لا لتدل عليها . انسه زي
أمسى شائعا عندنا في كل ميادين الحياة : كم سميت الكوارث مكاسب ،
والهزائم انتصارات ، وقيل حرية وكان طغيان ! وما شد الادب عن
القاعدة السائدة : منذ قرابة شهرين صدر من احدى مجلاتنا الفكرية
عدد خاص بالقصة . كانت في هذا العدد قصص ، والى جانبها كانت
صحائف مكتوبة بها سمي قصصا ولكن ما فيها من كلام بعيد عما يمكن
أن يسمى قصة . ربما كان محتوى تلك الصحائف كلاما حلوا ، ذا
تناغم جميل ، وصورا جذابة ، ولكنه ليس محتوى قصصيا . وبقيني

حين قبلت الحديث امامكم (✕) في الموضوع الذي اتحدث فيه
الآن عجبت من نفسي . بل لعل الاصدق أن أقول سخرت من نفسي .
لماذا ؟ انا كاتب قصة . هذا واقع لا مرية فيه ولا قدرة لي على دفعه .
غير ان الحديث في القصة او عنها شأن ما اكثر ما اعتذرت عن تجنبه ،
وتهربت منه . وان كنت قد قاربته في مرات قليلة فانني كلما ألجئت
الى التحدث عن رأيي في القصة ، او عن مذهبي في القصة ، او عن
غاياتي من كتابة القصة ، كنت أقول لنفسي هذه آخر مرة واني لسن
اعود الى مثلها . ولكن ها انا اجيء من بلدي البعيد ومقري النسائي،
حاملا نفسي وأوراقي ، لاتحدث فيما آليت على نفسي مرارا أن أبتعد
عنه ، ولاتحدث به اليكم انتم نخبة النخبة في الثقافة والنقد والخلق
والابداع .

قد تسألون عما يسوقني الى الابتعاد عن الحديث في القصة ،
ومحاولتي المستمرة في تحقيق هذا الابتعاد . ثمة سببان اعطيتهما جوابا
لمثل هذا السؤال . أول السببين ينبعث من ان الحديث في القصة ،
وفي قصتي انا بصورة خاصة ، يقودني الى التعمق لا في دقائق اسلوبي
فحسب ، بل الى التعمق في اغوار نفسي بحثا عن المنابع والدوافع
وعن الطرائق والاصول التي منها وبها تبرز قصتي التي اكتبها ، ومن
اعتقادي بأن هذا التعمق في دقائق الاسلوب واغوار النفس مضر بالنتائج
الفني المتمثل بتلك القصة . من أين ياتي الضرر ؟ لقد اجبت على هذا
في احدى المناسبات فقلت : ان البحث عن مذهب الكاتب فيما يكتبه
امر من وظيفة الناقد ، ومن الصعب على المرء أن يكون ناقدا مثاليا
لنفسه . وان تتبع الكاتب تتعا درسا لمذهبه في الكتابة وتحليله
دوافعه النفسية قد يكون فيه الضرر على انطلاقه في الكتابة والانتاج
الفني ، ذلك الانطلاق الذي كثيرا ما ينبعث بصورة عفوية ، اي بالصورة
التي يسميها الفنان الهاما ، وقد يتجاوز فيسميها وحيا . امر الكاتب
الفنان في هذا كامر انسان يفكر في الطريقة التي يسير بها في الشارع
على قدميه ، متتبعا حركات اعضائه عضوا عضوا ، وعضلات أطرافه
عضلة عضلة . لا بد له من التعثر في طريقه وهو يدقق باية قدم يبدأ
المشي بها ، باليمنى أو باليسرى ، وباية يد يحركها مرافقا بها حركة
الرجل . دعك من تفكيره بالعضلات التي يحركها واحدة بعد الاخرى
للوصول الى غايته من رفع القدم او تحريك اليد ...

هذا أحد السببين في ايثاري البعد عن الحديث في القصة .
والسبب الآخر ينبعث من تعلقني بكتابة القصة نفسها ، ومن حرصني
على ان أي جهد أدبي ابذله يجب أن يكون في صنع القصة لا في الكلام
على صنعها . اني من المعجبين بتلك الجملة التي قرأتها مرة منسوبة

(✕) نص محاضرة القيت في الشهر الماضي بقاعة النادي
الثقافي العربي في بيروت بدعوة من اتحاد الكتاب اللبنانيين .

الحديثة المسلطة على آدابنا اليوم ، او ان هذه التيارات تمر تحتهم دون ان يشعروا بخطرها في تقويض مفاهيمنا الثقافية وأسس تفوقنا الادبي . ذكرت لكم قبل قليل المجلة الفكرية التي أصدرت عددا خاصا بالقصة منذ شهرين . من بين القصص المنشورة في ذلك العدد اثنتان على الاقل بعيدتان كل البعد عن تعريف القصة ، وسميتا برغم ذلك قصة . تتألف احدي القصتين من أربع مقاطع أريد أن أتلو عليكم مقطعين منها .

المقطع ٢)

صرخ الاب غاضبا في وجه ولديه :

- كفا عن هذه الشرثرة .

قال الولد :

- سناكل الدجاج .

قاطعه أخوه :

- لا .. الحمام .

- لا .. الدجاج .

- لا .. الحمام .

- لا .. ال

ولما ازداد صياح الولدين اضطر أبوهما للخروج وسط ضحك العائلة بينما بقعة قائمة لا تزال تغطي الوجوه ، والقمر يئير العالم .

المقطع ٤ :

في الصباح قرأ في جريدة واسعة الانتشار خبرا سريما يقول :

((مسابقة الربيع

الفوز مضمون جدا ،

اقرأ التفاصيل في الصفحة السادسة)) .

لم يصدق ، مزق الجريدة ونام .

اعرف ان رواية جزء من قصة لا يصلح أساسا للحكم على مجموعها . ولكن صدقوني بان الجزئين الباقيين من تلك القصة ، وعنوانها ((الرجل الذي نسي عيد الميلاد)) ، لا يختلفان عن الجزئين اللذين تلوتهما في انتفاء الصفة القصصية عنهما وفي فقدان اية رابطة لهما بالاجزاء الاخرى ، وحتى بالعنوان . والقصة الثانية تقارب الاولى في لهلة التاليف . انها تشبه لوحات المصقات التي راج سوقها في ميدان الفنون التشكيلية في فترة ما : قطعة خيش ، قصاصة جريدة قديمة ، نفاية من صندوق القمامة ، وسحبة بوبا . تتألف هذه القصة الاخيرة من خمسة عشر مقطعا... لا تخافوا ، لن أقرأها كلها عليكم بل سأكتفي منها بهذين المقطعين القصيرين :

المقطع ٩ :

كنا أفكارا اكثر منا أجسادا .

المقطع ١٥ :

واد ذو زرع . جنة الله على الارض . هل قرأت ((روبنسون كروزو)) ؟

لنذهب الى هذا الوادي .. انا لا أغشك .

لكنني أخشى ما أخشاه يا محمود أن يكون سبقنا الى الوادي هاروبون قبلنا .

هذا كل ما يقوله المقطع الخامس عشر ، وهو المقطع الختامي من تلك القصة : هل قرأت روبنسون كروزو ؟ ذكرتني هذه الجملة بالوالي الدمشقي الذي وضع جائزة ينالها من يقص عليه قصة عديمة المعنى ، قصة باردة كما كانوا يسمونها . على ان يكون جزء من يتقدم لنيل الجائزة فيتبين ان لقصته اية قيمة او معنى عشر جلدات بالسوط على ظهره . وتقدم الى الوالي ، طمعا بالجائزة الثمينة ، أسوأ الرواة بأسخف الحكايات فآبوا كلهم بالاسواط على ظهورهم . الى ان جاءه في ذات يوم أحدهم يحمل كائدا ملفوفا في اسطوانة مجوفة ، فأخرج الكاغد من الاسطوانة ونشره أمام الوالي وقرأ فيه سؤالا : هل ذهبتم

ان هذا ما يلاقيه كل منا في مختلف مجلاتنا الادبية اليوم حين يقرأ ما هو مصنف باسم شعر او قصيدة . ثمة شعر حق ، ولكن ، من كلام مرصوف ، بل مقذوف ومبعثر يفقد الوزن ، أي وزن ، والقافية ، اية قافية ، ويفتقد امكانية الافهام او اثاره الاحساس ، من مقومات الشعر الرئيسية ، بين ما ينشر باسم الشعر ؟ لماذا أيها السادة يا من تكتبون ؟ اذن فقر في اللغة العربية بالكلمات تسمون الاشياء بغير مسمياتها ، أم عن حب للاستيلاء على القيم الثابتة واستلاب ما هو حق للآخرين تضعون على ما تنتجون علامات غيركم الفارقة ؟ أم انكم تقولون انما نفعنا فلان فلا تطالبونا بما لم يطالب به غيرنا . تقولون : لماذا يدجل الساسة ، ويفش الباعة ، وياكل الكبار كل يوم حق الصغار فيسكت عنهم ، بل ويثرون ويمجدون ، ونطالب وحدا الذين نكتب بان يلتزم كل منا حده ؟ تقولون حططنا الضوابط وتجاوزنا التعاريف ، فسمينا ما نشاء بما نشاء ... كتبنا هذا او تخاريف ، وكلاما لا رابطة بين اجزائه ولا ضابط له وسميناه قصة ... هذا شاننا ، ولكم انتم شانكم !

هذا كلام قد يقال لنا في معرض استنكارنا للالوان المسوخة من الكتابة والملحقة تطفلا بالقصة او الشعر ، فنبتسم لقاتله ، ولكننا لا نعطيه فيه حقا . وعلى ضوء رؤيتي للقصة أجده كلام عبث شديد الجانبة للحقيقة . فانا من القائلين بان اسما ما في الادب ، وفي غير الادب ، يجب ان ينطبق على مسماه ، وان كلمة ما يجب ان تؤدي معناها . القصة عندي هي ، قبل كل شيء ، قصة .

في صفرنا كنا ننشر برواية اشعار نصفها بالفنائة لانها لا تحمل لغارتها او سامها معنى جديدا او محتوى ذا جدوى ، مثل البيت الذي يقول :

الليل ليل والنهار نهار
والارض فيها الماء والاشجار
او البيت الآخر :

الارض أرض والسماء سماء
والنار قيل بانها حمراء

وما كنا نظن انه سيأتي اليوم الذي نردد نحن فيه مثل هذا الكلام لنقر به حقيقة يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ، او ان نخوض في ذلك جدلا ونلقى محاضرات . والا فهل قولي بان القصة هي قبل كل شيء قصة ، غير قول من هذا القبيل ؟

منذ اعوام اشتركت في ندوة تلفزيونية كان من اعضائها كاتبة قصة ومثقف ينتسب الى عالم القصة بكتابتها حينما وترجمتها حينما آخر . واستمعت الى زميلي في الندوة يعرفان القصة فلم املك غير ان دفنت وجهي في كفي لئلا يفهم المتظلمون الى شاشة التلفزيون معنى ابتسامتي مما اسمع . القصة كانت ، في التعاريف المعطاة ، التفاتة زمنية مجمدة بصورة فنية في اطار الواقع ... او هي ازمة نفسية مسلطة عليها انوار مجهر العواطف البناءة ... واشياء اخرى من هذا القبيل ، لا اذكر نصها ولكني حاولت ان اقرب ذلك النص . لماذا هذا التقعر ، وذاك اللف والدوران ؟ البست القصة ، من قصة خلق الدنيا ، الى قصة يوسف ، الى قصة الاخوة كارامازوف ، هي حكاية ؟ اما هي رواية احداث متتابعة ، لا يمكن ان توجد بدونها ؟ نحن حين نقول انسان فاننا نمني به الحيوان الشدي ذ القامة المنتصب المتمتع بالذكاء والنطق المفصل . هذا هو التعريف الجامع المانع ، كما يقول المناطقة ، للانسان . بعده يمكن لهذا الانسان ان يكون طويلا او قصيرا ، فاسقا او فاضلا ، اسود او اشقر . وكذلك القصة : هي حكاية قبل كل شيء ... وبعدها قد تتجسد فيها الالتفاتة الزمنية او تسيل ، وقد تنحل فيها الازمنة النفسية او تتعقد تحت الجواهر البصرية والالكترونية . الا انها لا تكون قصة ما لم تكن حكاية .

أرجو ان تصدروني اذا رأيتم اني أفسر لكم الماء بالماء ، وانني أشغل وقتكم بما يحسب بعضكم انه بدبية ليس من يجادل فيها . الذين يحسبون هذا حسنو الظن كثيرا ، او بعيدون عن التيارات

يا مولاي الى بيروت ؟ قال الوالي : لا . قال الحكواتي : وانا لم اذهب اليها يا سيدي ! وغاد فلف كاغده وأدخله الاسطوانة ... ففاز بالجائزة .

هل قرأت روبنسون كروزو ؟ لا ، لم أفراه . - ولا أنا يا صديقي . وفازت هذه القصة بالجائزة أيضا ...

ومن المفيد أن نقول بأن مؤلف هذه القصة الاخيرة التي شبهتها بالملصقات قاص ذو قدم راسخة في كتابة القصة المفهومة والمقبولة . ليس عن عجز كتب ما تلوت بعضه عليكم ، ولكنه فيما أحسب سوء تقدير للدلالة اسم القصة ، أو سوء تقييم لافهام الناس وأذواقهم ، أو انه جري وراء ما يظن تجربة طليعية دون ادراك ان الطليعية لا تكون ذات قيمة ما لم تكن محدودة الهدف المستقبل واضحة الارتباط بالاصول .

أرجو ان لا يظن المستمعون اني ممن يتمسكون بالقوالب الجامدة ، ومن يرون ان لا فن الا ما استنه وحدده ووضع قواعده الاوائل . وفي هاتين القصتين اللتين عنيتهما فيما تحدثت به ، قد تكون أعجبتني بعض مقاطعها ، أو بعض صورهما ، أو بعض جملهما . وحتى لو لم أعجب منهما بشيء ، فلا بد أن يكون فيهما ما أعجب انسانا واحدا على الأقل هو رئيس تحرير المجلة التي نشرتهما في عددها الخاص الممتاز . كل انتقادي عليهما انهما سميتا بما ليس هو اسمهما . انهما شيئا مكتوبان غير القصة . اني في هذا الامر أقترح ان تحت أسماء جديدة لهذه الالوان من الكتابة الطليعية التي ما عرفها الاولون ، في القصة ، وفي الشعر أيضا ، وأن تترك الاسماء القديمة لتلك الفنون كما تراضى بها الناس وتعارفوا بينهم عليها . وليس ذلك عسيرا . فاللغة واسعة ، ومجال الابتكار رحب . وأنا أعرف ان ثمة أسماء استحدثت للشعر الجديد ، استحدثتها وسماه بها أنصار الشعر القديم . الا ان هذه أسماء سخرية أرادوا أن يهزأوا بها من هذا الشعر الجديد الذي لم يرضهم . ولست أقصد هذا أنا . اني أريد أسماء جديدة ليس فيها ما يعيب أو ينتقص من قيمة الالوان المبتكرة حديثا من الكتابة ، وفيها الدلالة على ما تمثله هذه الالوان المبتكرة أو الطليعية . وحين يعجز المهتمون عن ايجاد تلك الاسماء فاني أدلهم الى الطريقة المتبعة اليوم في استنباط أسماء وافية بالمرام لمسميات جديدة في البلدان المتقدمة ، طريقة متبعة بصورة خاصة في تسمية المستحضرات الاستهلاكية الجديدة : ما لنا الا أن نعطي أحد الإدمغة الالكترونية مواصفات الاسم الذي نريده ، من معنى وموسيقية وعدد حروف ، فيعطينا الدماغ الالكتروني بفتنتنا بأسرع وقت وعلى أكمل وجه . وبهذا تكون وجدنا للفن الطليعي اسما طليعا بطريقة طليعية ، جد عصرية .

في هذا الكلام الكثير الذي قلته أجدني لا أزال أفق من رؤيتي الى القصة على الناحية السطحية ، عند ناحية الشكل . فهل القصة مجرد شكل ؟ أم انها في شكلها الخاص وعاء يحتوي ، أو يجب أن يحتوي ، ما هو أبعد من قشرتها الظاهرة ؟

من الناحية المداية لا شيء يحول دون أن تكون القصة مجرد حكاية مسرودة ، وتروق مع ذلك لسامعها أو قارئها . أقول من الناحية المداية ، وهي من الناحية البدائية كذلك . الذين عندهم أطفال لا بد من انهم مروا بالتجربة التي مر بها كل أب وام ، تجربة حكاية قبل النوم . يطالبك طفلك بقصة تهدمه لينام ، فاذا خانتك الذاكرة ونسيت حكايات جدتك فانت تلفق له آية حكاية فيستمع اليها مشغوبا . انه لا يجادل في امكانية حدوثها أو تعذر هذا الحدث ، ولا يكونها هادفة أو مجردة من الغزى الاخلاقي ، ولا بمصدرها واسانيدها . يكفيه ان تكون حكايتك متسلسلة الاحداث ، غير فاضحة التناقض في الوقائع . تلك هي القصة في الطفولة ، طفولة الافراد وطفولة الامم والآداب . وشيئا وراء شيء ، مع تقدم السامع والقارئ في الإدراك ، وتقدم

الامة في الحضارة ، والادب في النضج ، تتحول الحكاية الى قصة ذات محتوى يزداد غنى ومتعة ويزداد تعقيدا . واني لارى ان القصة في قيمتها وفي تكاملها قد سارت موازية لتقدم الحضارة ، حتى أصبحت اليوم الفن الرئيسي الغالب بين فنون الادب . ومثلما ساد الشعر تلك الفنون قرونا عديدة وفي حضارات كثيرة ، ومثلما احتل المقال والدراسات التي تضمها فصول من المقالات ميادين الثقافة في عهود متباينة وأطوار معينة من الحضارة ، نجد القصة الآن هي التي تحتل الذروة وتكون اللون الادبي الشامل الذي يضم في مطاوبه الشعر والفكر الفلسفي والتطلعات الاجتماعية . وفي رأبي ان القصة ما أخذت مكانها الحالي بين فنون الادب الا لانها الفن الذي أصبح مؤهلا لاستيعاب تعقيدات الحضارة العصرية ، ولتعدد القضايا الفكرية والفنية التي تثيرها هذه الحضارة ، ولتزايد العناصر التي تتألف منها وتخلقها هذه الحضارة الى درجة تضيق بالتعبير عنها فنون الادب الاخرى ، ولا سيما الشعر . لم تقف القصة الشعر في قيمته الجمالية ولا أغنت عنه في ادائه للاحاساسات الانسانية ولكنها احتوته ، أعني احتوت الشعر ، مثلما احتوت عناصر فكرية وعاطفية أخرى .

اسمحو لي ، ما دمت أتكم عن رؤيتي الشخصية للقصة ، أن أستشهد في هذا بنفسي وبتجربتي الخاصة في التطور الابداعي . لقد نظمت الشعر سنين عديدة ، وكان أول انتاج ادبي لي شعرا . ولا أزال الى اليوم من محبي الشعر ، المتأثرين شديد التأثير بقراءته ، التائقين دوما الى أن يقولوا فيه ولو كلمات متباعدة بين فترة وأخرى . وحين أعود الى سنوات الخلق والابداع الفائتة الحظ كيف بدأ تحولي من الشعر الى القصة يزداد مع ازدياد تفكيري ومعرفتي بالحياة وعلاقتي بالمجتمع . شيئا فشيئا أخذ الشعر يضيق عن استيعاب أفكاري وحتى عن التعبير عن مشاعري ، بينما فتحت لي بالقصة آفاق تعبير واسعة وأدوات خلق رائعة يسهل عليّ فيها أن أشرح الفكر وأغني العاطفة وأروي الخيال وأقص الاحداث . واني لاذكر حادثة في قصة لي يعينها . القصة هي قصة « كفن حمود » التي أثرت في نفوس السذنين قراؤها تأثيرا كبيرا . حين كانت هذه القصة في ضميري مجرد فكرة تهيأت للتعبير عنها بالشعر في قصيدة تتألف من عدة مقاطع . وحقا لقد بدأت بنظم تلك القصيدة ، الا اني ما لبثت حتى أدركت ان الشعر يضيق بما أريد قوله ، وانه يريدني أو يقودني الى قول ما لا أريد قوله ، فتحولت من القصيدة الى القصة ... الى قصة مؤلفة من عدة مقاطع قصيرة ، كأنها قصيدة .

لست أنكر في هذه الحادثة امكانية تفسير تحولي من القصيدة الى القصة بضعف في استطاعتي الشعرية قعد بي عن حسن الاداء بالشعر عما كنت أريد أن أؤديه من فكرة ومشاعر واحداث . الا انه ما من شك في ان اهاب الشعر قد ضاق عن احتواء ما يراد له أن يحتويه من تعبيرات عالمنا الحاضر ومشاكل عصرنا المعقدة والمتعددة . ولعل هذا الضيق هو أحد الاسباب التي دعت الى ظهور الحركات الجديدة في الشعر ، المعبرة الوزن والقافية قيودا يجب تحطيمها ، والمولدة اشكالا هجينة من النظم بحجة القدرة على التعبير عن قضايا الانسان المعاصر . ربما كان المنطلق في ظهور تلك الحركات الجديدة صحيحا ، ولكن الاشكال المولدة بدلا عن الاشكال المألوفة ما استطاعت أن تفي ، في الغالب ، بما كان يرجى منها . فبات مولدو هذه الاشكال كالمبتدئين ، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ... لا هم أبقوا على الشعر العربي في مقوماته الموسيقية والتأثيرية ، ولا هم بلفوا في انفلاتهم من القيود مبلغ حسن التعبير أو افهام الجماهير أو تمام الاحاطة بقضايا العصر الكبرى أو الدقيقة .

لقد استشهدت لكم بنفسي في هذا الموضوع ، وانا مقر بتواضع ذلك الاستشهاد . على اني أستطيع أن أضيف الى ذلك قولي بأن كثيرا من كبار القاصين في الآداب العالمية بدأوا شعراء وانتهوا كتابا روائيين . أو انهم ظلوا الى جانب القصة ينظمون شعرا ، ولكنهم

رؤية في القصة

- تابع المنشور على الصفحة - ٢٠ -

بالقصة عرفوا بين القراء والناس كافة . لماذا ؟ ان القدرة على الاستيعاب وامكانية التعبير المتوفرة في القصة هما سبب ، ولكن ثمة اسبابا اخرى . ويتراءى لي احيانا ان طبيعة تركيب حضارة هذا العصر ، او الحضارة السائدة في العالم طوال القرن الذي ينتهي بايامنا هذه ، متناغمة مع التركيب القصصي في التعبير الادبي . هذا كلام يبدو في حاجة الى شرح ، وافضل ان اشرحه بالامثلة . فاذا عدت الى تجربتي الشخصية وجدت اجمل ما كتبته من شعر ، ايام انظم الشعر ، كان مكتوبا بأسلوب قصة . حين اتفنى بجمال ليلة فاني لا اجد افضل من ان اتصور فيها النجمة الزهراء عاشقة للقمر الساطع بجانبها ، وانصور اتئلاق انوارهما حوارا اديره بينهما كحوار العشاق في قصصي . وحين اتفزل بفنائة اروي لها اشواق في حكاية لها بداية ونهاية ولها احيانا عقدة كعقدة القصة المشوقة . انه عالنا الذي نعيش فيه ، عالم الحكايات . العلم يلقاه أطفالنا في قصص ، والتاريخ نقرأه قصصا ، والاعلانات في الجرائد والمجلات نجدها حوارا ورواية احداث . وقد قلت ان كثيرا من الروائيين العالميين تحولوا الى الرواية بعد ان كانوا شعراء ، واقول ايضا ان كثيرا من الروائيين ظلوا شعراء في احساسهم وتفكيرهم ، وعبروا عن هذا وذاك بأسلوب قصصي . والا فمن يكسون دستوفسكي وتولستوي ، وشارلوت واميلي برونتي ، وتوماس مان ، وفرانسوا موريك واندره جيد ، وبين العرب توفيق الحكيم ، غير روائيين شعراء ؟

ليس الشعراء وحدهم . فثمة روائيون فلاسفة وروائيون صحفيون وروائيون مصورون وفوتوغرافيون . لان الرواية ، والقصة بصورة عامة ، هي كما اسلفت الفن الادبي الشامل ، المتسع لكل الفنون الاخرى . اتراني اقول هذا تعصبا مني لفن عرفت به من الناحية الادبية وانتجت فيه اهم انتاجي ؟ قطعا لا . فانا ارى بوضوح ان القصة اذا كانت اليوم الفن الشامل ، فانها لن تكون ذلك غدا . لقد قلت ان قيمتها تقدمت بتقدم الحضارة وتاكدت حين ضاقت اساليب التعبير الاخرى عن استيعاب معطياتها بينما استوعبت القصة تلك المعطيات واحسنت عنها التعبير . ولكن الحضارة مستمرة في تقدمها ، وسياتي اليوم الذي تضيق القصة نفسها بالتعبير الوافي عما يريد الانسان الجديد ان يعبر عنه ، فيبحث هذا الانسان عن وسيلة تعبير جديدة له او يخلق هذه الوسيلة . لنتأمل في امر السينما والتلفزيون وفي اتساع موجة التعبير بالوسائل السمعية البصرية نجد ان فنونا جديدة اشمل من القصة ، لانها تحتوي القصة فيما تحتوي ، اخذت ترسخ مكانتها في اهتمام الانسان المعاصر . وليس مستبعدا ان ياتي اليوم الذي تزرح فيه الاساليب السمعية البصرية ، او ما يستنبط منها من وسائل التعبير ، ان تزرح القصة الى مكان خلفي مثلما فعلت القصة بالشعر في هذه الايام .

ولكن لم نستبق الزمن ونبحث عما سيكون في غد قبل مجيء غد ؟ في غد سيجد الفنان الحق وسيلتله الحق للتعبير . كبار فناني العالم كانوا شعراء في الماضي ، وكبارهم في المستقبل ربما اصحوا المخرجين السمعيين البصريين ، مثلما هم القاصون الآن . ويبقى الفنان الحق أيضا هو الذي يحسن التعبير بالاداة التي يستخدمها والتي تتكاتف في اختيارها له موهبته الشخصية ، وظروف العصر والبيئة والمجتمع التي تحيط به . الا ان التعبير نفسه يظل في الدرجة الاولى حصيلته موهبته الشخصية ، وعلى الاصح نتيجة العوامل الشخصية عند الفنان من موهبة ونوازع ودوافع .

وفي الواقع هل القصة في صورتها الفنية غير انعكاس شخصية القاص على الحياة والاحداث ، او تسجيل ذلك الانعكاس بحبر على ورق ؟ وانا اعني هنا بشخصية القاص حصيلته مكوناته الفكرية

والنفسية ومكتسباته من الحياة والمجتمع ، وحتى موروثاته المتأدية اليه من آبائه الاولين . وبالطبع ، لم يكن هذا الوصف للقصة منطبقا عليها في كل ادوار حياتها . ففي طور الطفولة ، طور حكاية الطفولة التي اشرت اليها قبل ، كان القاص يروي احداثا جرت لآخرين كانه ينقل خبرا بلسان محايد ، ليس في روايته له رأي ولا هوى . وكان ذلك طورا قديما بعد ما بيننا وبينه الزمن وتعددت المراحل . اما القصة المعاصرة ، القصة الفنية التي تعنينا ، فانها قطعة من كاتبها ، يضع فيها بلاغته وثقافته وافكاره ومشاعره ، وكثيرا ما يضع فيها ذاته . وحين اقول ذاته لا اقصد القصص الاتوبوغرافية وحدها ، بل انسي اقول ان كل بطل من ابطال أي روائي يحمل جزءا من ذات ذلك الروائي في اغلب الاحيان ، واكاد اقول في كل الاحيان ، وبعضا من صفاته . ليس ابطال الخيرون وحدهم ، بل الشريرون كذلك . وهذا ما اوجزه فلوير في كلمة واحدة حين قال : مدام بوفاري ، انها انا !

ايما بوفاري ، مدام بوفاري ، هي غوستاف فلوير . وكل بطل في كل قصة هو مؤلف تلك القصة ، او فيه ملامح قد تكثر او تقل من ملامح المؤلف وصفات من صفاته ، شاء المؤلف ذاك ام ابي ، وعساه او لم يمه . ذات مرة رددت في رسالة خاصة على ناقد اتهمني في مقال له في احدى المجلات بانني كاتب نرجسي ، مولع بادعاء الدون جوانية وادعاء تهافت النساء علي ، مستنتجا هذه التهمة من قصة لي عنوانها « ضوء في النافذة » . بطل « ضوء في النافذة » رجل نري تحبه سكرتيرته الشابة وتدعوه الى موعد في غرفتها في ساعة متأخرة من الليل حين ينام اهل الدار . وقد كتبت للناقد يومها استنكر خلطه ما بيني وبين بطل القصة ، في حين ليس بيننا صفة مشتركة : القصة ليست مروية بلسان المتكلم بل تروي حكاية سامح بك ، وهو رجل اعمال شائب الفودين ، يدخن ويشرب الويسكي غالبا والعرق احيانا ، مدير لشركة كبيرة في مكتبه فيها سكرتيرة جميلة وانيقة . وانا ما كنت يوما رجل اعمال من هذا الطراز ، ولا كان عندي في يوم سكرتيرة ، ولست مدخنا ولا اشرب الخمر ، وحين نشرت تلك القصة لم تكن في راسي شعرة بيضاء . وقلت للناقد في رسالتي انك تعرف كثيرا من هذه الامور عني ، فلماذا تصر على ان تعتبرني شخصا بطل « ضوء في النافذة » وتتهمني اني فيما اكتبه اتبجح امام قرائي بمغامراتي مع جميلات النساء ؟ لم يكن لدى الناقد ما يجيب به على سؤالي واستنكاري . وانا واثق بانه لم يكن مفرضا في نقده ، وانه لو اجابني لقال انه لم يبحث في الوقائع حين كتب ما كتب ، ولكنه اورد احساسه كناقد . وعلي الان ان اعترف بان ذلك الاحساس ، عند ذلك الناقد ، كان صادقا ، وانه لم يجانب الحقيقة كثيرا فيما كتبه ، وان كانت الوقائع الظاهرية تخالف تقديره وحكمه .

كيف يصح هذا الذي اقله ؟ الواقف ان سامح بك كان انا ، او اني كنت كل الكينونة سامح بك ، رجل الاعمال ، حين كتبت قصته . قبل كتابة القصة واثناء كتابتها عشت حياتته وتقمصت شخصيته وشغفت مثله ، او معه ، او عنه ، بتلك الفتاة ، سلوى ، التي شغل هو بها . وقفت في منتصف الليل والمطر بهطل رذاذا على الرصيف المقابل لدارها اترقب ان تضئ لي النافذة لانسئل الى تلك الدار . وفي اثناء ذلك الترقب خفق قلبي في صدري ، او خفق قلبي في صدر سامح بك بشدة حتى لقد مددت اصابعي اجس نبضي خشية ان اكون اصبت بنوبة قلبية . ثم حين سطع النور في النافذة قطعت الشارع ، وبدلا من ان اجد المدخل المؤدي الى غرفة الحبيسة انحرفت وتابعت سيرتي الى النادي حيث رفضت كاس الويسكي الذي قدمه اصحابي اليّ وشاركتهم شرب العرق . . . نعم لقد كنت سامح بك ، وفعلت كل ما فعله ، لاني عشته . عشته في ضميري ، وفي تفكيري وخيالي . ولاني عشته حقا ، وصفته بدقائقه وصفا اقنع القراء ، وناقدي من بينهم ، بانه جرى حقا ، وانه جرى لهذا الكاتب مؤلف القصة . وما بهم بعد هذا ان يكون اسم من جرت له هذه القصة عبد السلام او سامح ، وان يكون طبيبا او رجلا اعمال ، وان يكون فوداه قد شابا

ألا يزالان كجنج الغراب ، وان تكون او لا تكون له سكرتيرة شابة وحسناء ...

أبطال قصصنا هم نحن ، جزءا أو كلا . وأحداث تلك القصص جرت لنا حفا ، في الواقع أحيانا وفي الخيال أحيانا . ان الواقع والخيال عندي ، في ما كتبه من قصص ، هما واحد في القوة وفي القيمة . أحدهما منطلق الآخر ، وأحدهما يتم الآخر . من الواقع ينبثق الخيال ، ومن الخيال أرسم صورا وأصف أحداثا تصبح بقدره الفن واقعا . هذا ما يشعر به قرائي ويعبرون لي عنه في أحاديثهم واستفساراتهم . كم من زائر لي في منزلي عجب حين لم ير زوجتي سويدية ، لانه وقر في نفسه منذ سنين اني متزوج من سالي ، تلك التي تزوجها أحد أبطالها في القصة التي كتبتها بهذا الاسم ؟ بل ان مارون عبود حين كتب عن مجموعتي « فناديل اشيبيلية » وصف تلك القصة بأنها حكاية زواجي رويتها للقراء في قصة رائعة . وكم مسن سائل لي عن ملحق ذلك الفندق في بحمدون الذي قادت اليه باسمه ، مع ان الذي قاد باسمه ، في روايتي « باسمه بين الدموع » ، السى ذلك الملحق ، هو الاستاذ سليمان عطا الله المحامي الفاضل في الانتخابات النيابية ، والذي يكتب الافتتاحيات السياسية في جريدة حزبه في دمشق ؟ ليس القراء وحدهم هم الذين يختلط عندهم الواقع بالخيال في القصص التي كتبها ، فيأخذون في الاعتبار عندهم ماأخذوا احدا . فانا لا أزال أذكر ان أول شيء فعلته حين زرت لندن زيارتي الأولى عام ١٩٥١ اني تناولت دليل التلفون في الفندق الذي نزلته ، ورحت ابحت عن شارع كنتجسلي رود الذي ذكرته في قصة لي اسمها « ساعة اللازم » . ذلك الشارع السذي اخترعته من عندي لضرورة القصة ، حين كتبها ، وذلك في زمن لم أكن عرفت فيه لندن . وعشا كنت أبحث في الدليل ، فلم يكن ثمة شارع بهذا الاسم . شعرت عندها بمزيج من الغيظ والاسى وأخذت أتساءل : لماذا لا يذكرون اسم هذا الشارع في دليل ضخم كالذي بين يدي ؟ انه شارع موجود ، فأيسن اختفى ؟ كيف لا يكون موجودا وقد وجد في قصتي ، تنفس فيه أبطالها ذات يوم وعاشوا فيه جزءا مهما من حياتهم؟! وهكذا انقلب السحر على الساحر ، وأخذت أنا بالبحالة التي نصبت ...

حدثتكم بكل هذا عن نفسي وعن قصصي لاني أنحدث عن رؤيتي أنا للقصة . ترى أصدق ما أتحدث به على كل فاص ؟ كلمة فلوبيسر التي أعدتها على أسماعكم توحى بأنه ، فيما كتب ، من هذا المذهب . وأحسب ان كل كاتب صادق مع نفسه مخلص لفنه هو في حال مثل هذه الحال ، تقاربها أو نفوقها . فاذا صح ما أفوله فان مشكلة طالما أثارت النقاش والجدل ، وطالما أسألت الحبر على الورق ، تكون قد حلت كلها أو في أغلبها . وأعني بها مشكلة التزام الكاتب ، والتزام الشاعر وكل فنان ، بقضايا مجتمعه وأمنه وعصره . مطالبتنا للكاتب ان يكون ملتزما تكون بهذا غير ذات موضوع . فما دام كل كاتب هو ابن مجتمعه وأمنه وعصره ، وما دام يضمن فيما يكتب ذاته وأفكاره وأحاسيسه وتطلعاته ، فلا مفر من ان يكون ما يكتبه مرتبطا كل الارتباط بالمجتمع والامة والعصر التي إليها ينتسب . فهو يعبر في كتابته عن قضاياها ومشاكلها وعن موقفه منها وتطلعاته نحوها ، بالرأي السذي يراه أصوب والطريقة التي يراها أنجع ، ويعبر عنها بالقوة التي تؤثر بها في نفسه وتتاثر نفسه بها . هذا هو الالتزام الصحيح والعفوي ، أما اذا أردت أن تفسر الكاتب على ان يكتب ما لا يتحسس به ، أو على ان يتعزل عما يشعر به ، فانك بذلك تسوقه الى الالتزام لا تدعوه الى الالتزام .

لقد ذكرت الكاتب الصادق مع نفسه المخلص لفنه ، وما قلنته ينطبق على الكاتب الذي يحمل هذا الوصف . ففيما عدا أولئك الذين يشذون عن شروط هذا الوصف فاني أرى ان كل كاتب ملتزم ، في عصرنا هذا وفي كل العصور . « ليس من أدب او فن غير ملتزم ،

فبمجرد أن نكتب أو تفكر بالكتابة فانت ملتزم بقضية ما . حتى أوسكار وايلد الذي دعا بفكرة الفن للفن هو ملتزم ، بل ومن أكثر الكتاب التزاما بقضية المجتمع » . هذا الكلام ليس لي ، بل قرأته في محضر ندوة أقامها كتابنا الطليعيون ، الشباب والملتزمون ، في دمشق في الاسابيع الاخيرة .

ان الفن للفن تعبير يكاد يكون غاربا عن الدلالة عند ذلك الكاتب الصادق مع نفسه المخلص لفنه ، في كل العصور وفي عصرنا خاصة ، وعند كل الكتاب وعند الكاتب العربي بصورة خاصة . وقد فلت ذات مرة في حديثي عن المثقف العربي انه ، مثل كل مثقف في العالم ، مسوق الى الاهتمام بالقضايا الكبيرة في هذا العصر وبأخذ موقف منها . بل انه جدير بان يكون أشد اهتماما من غيره بتلك القضايا الكبيرة لان انباء بعضها لا تفارق سمعه كل يوم ، وبعضها تفرع عليه باب داره كل لحظة مذكرة اياه بانها تعني بالنسبة اليه الحياة أو الفناء والوجود أو العدم . ومع ذلك فاني أعرف بعضا من كتابنا ينظاهرون بان مذهب الفن للفن يعجبهم ، او بانهم يتبعونه ، في نوع من التحدي لمن يتصور الالتزام الزاما ، أو انتسابا الى القطيع ، او تطبيلا وتزويرا لنظام قائم ريثما يسقط هذا النظام فيطبل ويזمر لغيره . ومن ناحيتي فاني أعترف ، في سلسلة اعترافاتي أمامكم على هذا المنبر ، اني كثيرا ما تعمدت ان أكتب في المجلات الملتزمة فصصا بعيدة في ظاهرها عن الالتزام ، مسميا اياها فصصا محض فنية ، في رغبة مكررة مني بمقارنة بين أدب صادق وآخر مصطنع . فكانت النتيجة اني فشلت في البعد عن الالتزام ، لان كل ما كتبه بظل ملتصقا بقضية ما ، اذا لم تكن سياسية فهي نفسية أو فكرية ، من قضايا المجتمع او الانسان ...

واني نجحت في تبيان ان أدبا لا يتبع الالتزام الرسمي ولكنه صادق وأصيل ، يفون دوما أدبا رسميا يحظى ببركات النظم السائدة وتطلبات السوق المستهلكة ولكنه بعيد عن موهبة ترفده او صدق يزيه . حين نشرت قصة « سالي » ، التي مر ذكرها بكم في هذه المحاضرة ، في عدد قديم من مجلة صديقي الدكتور سهيل ادريس ، « الآداب » ، كتب ناقد المجلة في العدد التالي منها كلاما في تلك القصة أسمح لنفسني بان أتلو عليكم بعضه . كتب يقول : « ان سالي ... ليست في نظري قصة الشهر فحسب ، بل درة القصص من موضوعة ومترجمة ، ولؤلؤة العدد كله . طالعها بلذة وشوق ، لم أتامل لحظة او ابرم ...

ولئن احتج جماعة الالتزام بأن « سالي » لم تعالج مشكلة بالذات من مشاكلنا ، فان فيها نفحة خلقية تنضوع مسكا من كل أردانها ، مسن كل أسطرها ، وهي عندي أروع من ألف عظة » .

ترويتي قد اعترفت أمامكم بما كنت احتفظ به لنفسي منذ زمن طويل . ولا أدري بعد هذا الاعتراف هل يفلق أصدقائي أصحاب المجلات الملتزمة أمامي صدور مجلاتهم أم يظنون على ترحيبهم بي ، على الأقل ليسخروا من جيوش الكتاب الملتزمين ، الكاذبين أعني غير الصادقين ، متبعين بذلك سيف الدولة في طريقته التي وصفها المتنبئ بقوله :

اذا شاء أن يلهو بلحيفة أحمر أراه غباري ثم قال له الحق ...

وبعد ، ترون اني في حديثي اليكم هذه الأسمية تناولت القصة من ثلاث زوايا : شكلها ، ومكانتها في الادب المعاصر ، وصلتها بكتابها . ثلاث زوايا للرؤية ، رؤيتي الشخصية . ثمة زوايا كثيرة للقصة لا تسع محاضرة واحدة لوصف الرؤية منها أو اليها . وثمة راؤون كثر غيري الى القصة ، من كتابها ، لست أزعم بانني قادر على الاحاطة برؤيتهم وبارائهم ونقلها اليكم . وقد أسهمت واستشهدت باناري الشخصية ، وتجاوزت مصطلح التواضع بان أوردت لكم ما أتني به الآخرون على أدبي . فأرجو أن تفقروا لي كل هذا من خلال تقديركم اني أردت أن أجتبكم مبتذل الاحاديث ، وأن أصدقكم برواية ما أحسه واعتقده وأعمل به .

عبد السلام العجيلي